أدب الأطفال .. أهدافه وسماته
لدى محمد حسن بريغش

ملف خاص

يقول الأستاذ محمد حسن بريغش - يرحمه الله - في رسالة خطية بعثها إلى د. خالد الدادسي بن الحبيب في المغرب « ... وأشكرك على ملاحظاتك التي أبديتها على كتابي (الأدب الإسلامي وأدب الأطفال) واستفدت من المعلومات التي أوردتها عن بعض ما نشر عن أدب الأطفال في المغرب، وسوف تضاف إن شاء الله في طبعة قادمة. ويجدر بالذكر أن هذا الكتاب أصبح مقررا في بعض الكليات، أو مصدرا رئيسا. وأزعم أنه أول كتاب عن أدب الأطفال يتحرر من هيمنة المترجات عن أدب الأطفال، ويعرض هذا الأدب من منطلق إسلامي لا موارية فيه.

وبالمناسبة فلقد نشر لي في مجلة الفيصل مقالة بعنوان: (محاولة مبكرة ورائدة في أدب الطفولة) العدد (٢٥٨)، ص٣٩، في شوال ١٤١٨هـ، وفيها عرض لكتاب باسم (ألف باء) مؤلف للأطفال، كتبه أبو الحجاج يوسف بن محمد البلوي المالقي الأندلسي المالكي المعروف بابن الشيخ المولود سنة ٥٢٩ هـ والمتوفى سنة ٦٠٤هـ.

وهذا الكتاب يدحض كل مقولات الغربيين ومن أخذ عنهم بأن أدب الأطفال أدب غربي، وأنه أدب حديث »[1].

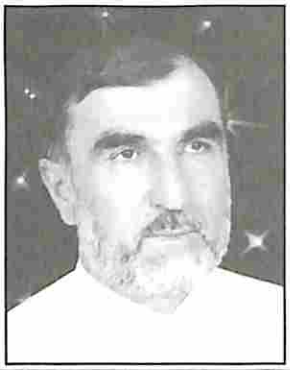

بقلم : شمس الدين درمش

نستطيع أن نقرأ في هذه الرسالة طرفا من مدى اهتمام محمد حسن بريغش بأدب الأطفال خاصة في إطار اهتمامه العام بالأدب الإسلامي وقضاياه والذي يشكل جانبا أساسيا في حياته التي كرسها للدعوة إلى الله سبحانه وتعالى .

وقد تكون شهادة الرجل لنفسه مجروحة في اعتباره مؤلفه هذا في أدب الأطفال (أول كتاب يتحرر من هيمنة المترجمات عن أدب الأطفال ويعرض هذا الأدب من منطلق إسلامي لا مواربة فيه) .

ويعد من باب الاعتداد بالنفس، المبني على الثقة الزائدة ، لأن مثل هذا يتطلب استقصاء لما كتب في ساحة هذا الفن الأدبي، كما أن عبارته تتضمن إيحاء واضحا بأن غيره ممن كتب في أدب الأطفال الإسلامي وارب في عرضه قليلا أو كثيرا .

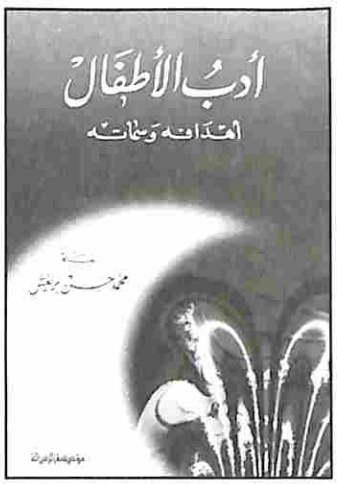

ومهما يكن فإننا نستطيع أن نقول بشيء من ابتغاء التوسط في الرأي أن كتابه يعد من الكتب السابقة في هذا المجال والذي حاول فيه تأصيل أدب الأطفال إسلاميا، وسعى جاهدا للوصول إلى نتيجة مفادها : أن القول بكون أدب الأطفال أدبا حديثا وغربيا وأن المسلمين لم يعرفوا هذا اللون من الأدب هو قول غير صحيح، وهو ناتج عن انبهار الأدباء العرب بما لدى الغرب من فنون وآداب، وعجز عن استخراج هذا الكنز من تراثنا الأدبي القديم « فأدب الطفل أدب إسلامي، لأنه لا أحد في الدنيا في مجال الاعتقاد، أو التشريع، أو الاهتمام، أو الواقع أعطى الطفولة حقها، واهتم بها، كما اهتم بها الإسلام والمسلمون »[٢].

تحدث الأستاذ بريغش في كتابه عن أهمية الطفولة ونظرة الإسلام إليها، واستشهد لذلك بنصوص كثيرة من القرآن الكريم والسنة النبوية وكتب التراث، ونقل أسماء مجموعة من الكتب التي عنيت بالطفل وأحكامه من مثل : أيها الولد للإمام الغزالي، وتأديب الناشئين بأدب الدنيا والدين لابن عبد ربه، مما يؤكد أن العناية بالأطفال لم تقتصر لدى المسلمين على النواحي التربوية السلوكية بعيدا عن التربية الأدبية بمفهومها الاصطلاحي . وهو ما تناوله المؤلف في الفصل الثاني من كتابه تحت عنوان (أدب الأطفال أهميته وتاريخه)، فطوف بأدب الأطفال عبر التاريخ، وأطال الوقوف عند ما ورد في تاريخنا الأدبي العربي، ونقل بعض النصوص الشعرية القصيرة التي تشبه الأناشيد المعاصرة مثل :

إن بني معرق كريمُ
محبب في أهله حليمُ
ليس بفحاش ولا لئيمُ
ولا بطخرور ولا سئيمُ
صخر بني فهر به زعيمُ
لا يخلف الظن ولايخيم[٣]

ويوسع المؤلف دائرة المصادر فيقول : « وفي الكتب التي تتحدث عن الأبناء في تراثنا العربي الإسلامي كثير من الحكايات والقصص - إضافة للشعر - التي يمكن إدراجها ضمن أدب الطفل شريطة أن نخضعها لظروف عصرها وطبيعته وقيمه وعاداته ...)[٤] .

ويتبع ذلك بتعداد أسماء أمهات كتب التراث الأدبي مثل البيان والتبيين للجاحظ، والعقد الفريد لابن عبد ربه، وأنباء نجباء الأبناء لمحمد بن ظفر الصقلي.، وكليلة ودمنة لابن المقفع، وغيرها .

غير أن الكاتب يقع بما يشبه التكرار عندما يخرج مما ذكره من أدب الأطفال في تراثنا العربي والإسلامي، ليبدأ عنوانا جديدا (أدب الأطفال عند المسلمين [٥] فيقول :

«ولكننا أيضا ينبغي أن نبحث عن جذور أدب الأطفال في مصادرنا الأساسية في كتاب الله عز وجل وحديث رسول الله ﷺ وفي أحداث السيرة وكتب التاريخ وفي غيرها من الكتب التراثية الأصلية »[٦] .

وهذا المدخل في الحقيقة يتبع الباب الأول من الكتاب (الإسلام وتربية الطفل) لأن الكاتب ركز فيه على ما ورد

في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة بما يمكن أن نسميه التأصيل لأدب الطفل ومنابعه عند المسلمين .

ثم يتناول أدب الأطفال في العصر الحديث في جولة عالمية تشمل دولا أوربية وأمريكا واليابان، ودولا إفريقية عدة وبلدانا إسلامية غير عربية، ثم البلاد العربية فيطيل الوقوف في مصر خاصة ويعرض لذكر رواد هذا الأدب فيه مثل شوقي ومحمد عثمان جلال وإبراهيم العرب وغيرهم .

ثم ينتقل إلى دول أخرى مثل الأردن وسورية بشيء من التفصيل قريبا من حديثه عن مصر، ثم يقصر قلمه عن الكتابة فيجمل الحديث عن العراق ودول المغرب العربي والسعودية ودول الخليج بنصف صفحة فقط [٧]، مما يعطي انطباعا لدى القارئ بالانحسار الذي أصاب الكاتب أو قلة المادة والمراجع لديه، وأنا أستبعد قلة المراجع بالنسبة لدول الخليج نظرا لإقامة الأستاذ بريغش في المملكة العربية السعودية التي تعد ساحة مفتوحة لدول الخليج الأخرى مما أفقد البحث توازنه بالنظر إلى العنوان الذي وضع له :(أدب الأطفال في البلاد العربية)!! كما أنه تجاهل بعض الدول كالسودان مثلا !!

وأبرز ما أراد الكاتب إظهاره في مئة الصفحة الأولى من كتابه مايلي :

١ - إن أدب الأطفال أدب إسلامي صرف .

٢- عدم التسليم بأن أدب الأطفال أدب حديث نشأ في اوربا.

٣- تأثر معظم الأدباء والنقاد الذين كتبوا عن أدب الأطفال في البلاد العربية والإسلامية بأدب الأطفال الغربي .

٤ - تأثر كثير من الكتابات التي ظهرت في البلاد العربية والإسلامية بالأفكار القومية والعلمانية والأساطير الموجودة في التراث العربي وغير العربي.

٥ - وقوع كثير من الأدباء الإسلاميين الذين كتبوا في أدب الأطفال تحت تأثير الغزو الثقافي الغربي نقدا ودراسة وإبداعا عن طريق الترجمة.

وإذا كانت بعض هذه الملامح بات واضحا متفقا عليها فإن بعضها سيبقى محل جدل وعدم تسليم مثل القول :(بأن أدب الأطفال أدب إسلامي صرف) !! ومدلول هذه العبارة لدى المؤلف .

يعرض محمد حسن بريغش في النصف الثاني من كتابه إلى أهداف أدب الطفل، والسمات الأساسية لأدب

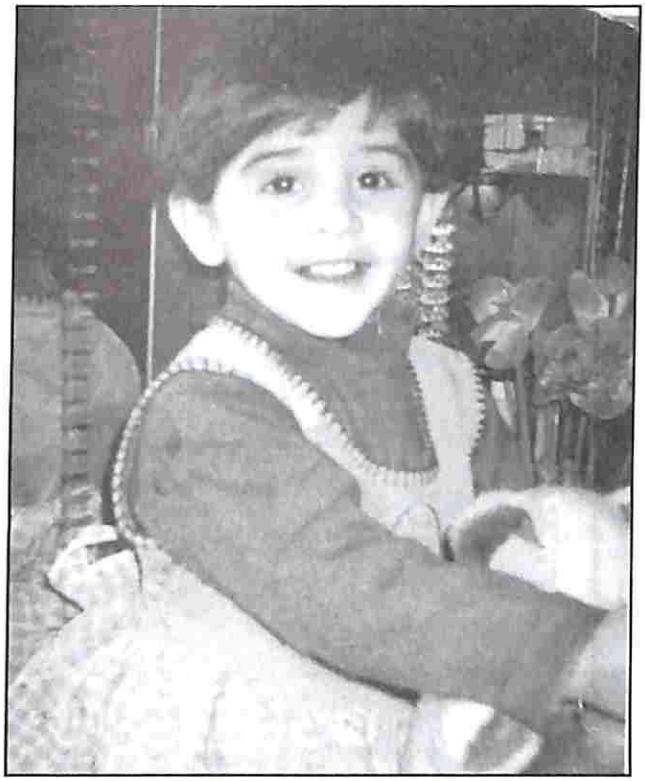

الأطفال في المحتوى والأسلوب، موضوعات أدب الأطفال وفنونه .

ففي أهداف أدب الطفل يقوم الكاتب بنقد لصياغة هذه الأهداف في بعض ما نشر عن أدب الطفل في سورية ومصر واستعان لذلك بما نشرته مجلة الموقف الأدبي - عدد ممتاز - عن أدب الطفل في سورية، ودراسة عن القيم التربوية في ثقافة الطفل التي عقدت في معرض القاهرة الدولي الثاني لكتب الأطفال، ويلاحظ الكاتب على ما ورد في هذه الدراسات مايلي :

- الاهتمام بالجوانب المادية من حياة الطفل.

- اعتمادها على النظريات الغربية حول النفس الإنسانية عامة ونفس الطفل خاصة .

- وجود توصيات جيدة ولكنها اهتمت بجانب واحد.

- وجود اتجاهات دأبت على تسخير أدب الطفل لإخراج جيل يؤمن بالعلمانية ويدين بالاشتراكية العلمية .

ومن هذه النتائج في تحديد الأهداف في الدراسات الموجودة في الساحة الأدبية عن أدب الأطفال ينطلق المؤلف إلى تحديد بعض الأهداف المهمة لأدب الأطفال على ضوء التصور الإسلامي، ووضع هذه الأهداف تحت العناوين الأربعة التالية :

١- الأهداف الاعتقادية .
٢- الأهداف التربوية .
٣ - الأهداف التعليمية .
٤ - الأهداف الجمالية .

وسأتجاوز ما عرضه الكاتب بالتفصيل في الصفحات التالية لاقتناعي بأننا متفقون مع الكاتب في صياغة هذه الأهداف ووجوب تحقيقها .

وإذا كان لدينا شيء فسيكون إضافة لما ذكره في إطار (المحافظة على الأساس الذي يمنحنا وجودنا وهويتنا وصبغتنا الإسلامية) [٨] .

السمات الأساسية لأدب الأطفال

أما السمات الأساسية لأدب الأطفال لدى محمد حسن بريغش فيقول عنها هو نفسه : « إن الحديث عن السمات الأساسية لأدب الأطفال يتعلق بأمرين متلازمين :

الأول : يدور حول محتوى هذا الأدب وأهدافه (المضمون).

والثاني : يتعلق بالأساليب المناسبة التي يمكن استخدامها لتحقيق الأهداف »[٩] .

وفي رأيي أن هذا الكلام يدخل فيما قبله في الأمر الأول والذي يدور حول محتوى أدب الأطفال وأهدافه (المضمون)، حيث أسهب المؤلف في أهداف أدب الطفل من منظور التصور الإسلامي.

ويدخل فيما بعده في الأمر الثاني الذي (يتعلق بالأساليب المناسبة التي يمكن استخدامها لتحقيق الأهداف) وهو الذي يعرض له في الفصل الخامس في موضوعات أدب الأطفال وفنونه، مع ملاحظة أن ما ذكر في الموضوعات يندرج كله في بحث الأهداف، فقد ذكر الكاتب هنا :

١- الموضوعات التوجيهية التربوية وهي :
أ- موضوعات بناء العقيدة ...
ب - موضوعات قرآنية.
جـ موضوعات من الحديث الشريف.
د- موضوعات السيرة النبوية .
هـ - موضوعات تاريخية .
و- الموضوعات الاجتماعية .
٢- الموضوعات المتعلقة بالعلوم التطبيقية.

ونلحظ التداخل الواضح في صياغة الموضوعات التوجيهية التربوية بما يشبه الهدف والوسائل .

وأخيرا يعرض الكاتب لفنون أدب الأطفال فيتناول (القصة والشعر) بشيء من التفصيل، بينما يوجز في الأنواع الأخرى (كتابة السيرة التاريخية والاجتماعية والموضوعات الأدبية كالمقالات والطرائف والأمثال والحواريات المختلفة والمسرحيات إيجازا شديدا في أقل من ثلاث صفحات .

وقد حصلت القصة على نصيب أكبر من الشعر لأن لها مجالا أوسع وتأثيرا أكبر على الأطفال قديما وحديثا.

فقد دعا الكاتب إلى (تصحيح مسار أدب الطفل عن طريق القصة الإسلامية المناسبة ...) [١٠]، و (أن يظل شعر الأطفال شعرا ملتزما بقيم الإسلام وتصوراته)[١١].

إذ وجه الكاتب نقده لكثير مما يكتب في مجال القصة والشعر وتأثره بالعقائد والأفكار الخارجة عن الإسلام.

ويبدو أن الكاتب له موقف متحفظ من المسرح عامة ومسرح الأطفال خاصة، فهو يدعو (إلى دراسة متأنية تتحرر من ضغوط الواقع وعدوى المدنية الحديثة وتتحرر أيضا من المخاوف وردود الأفعال)[١٢] .

وبعد : فإن هذا الكتاب مما يعد للأستاذ محمد حسن بريغش سواء كان (أول كتاب عن أدب الأطفال يتحرر من هيمنة المترجمات ...) كما ورد في رسالته التي قدمت بها لهذا المقال أم من أوائل الكتب في مجاله .

ومن ناحية أخرى جاء الكتاب هادفا للتأصيل الإسلامي لأدب الأطفال من خلال إثبات جذوره العميقة في الأدب العربي قبل الإسلام عامة وبعد الإسلام خاصة، ولا أزعم أني أعطيت الكتاب حقه. ورحم الله الأستاذ محمد حسن بريغش، وجعل ما كتبه في صالح أعماله. ■

الهوامش:

(١) وصلت صورة الرسالة إلى المجلة من د. خالد الدادسي.
(٢) أدب الأطفال .. أهدافه وسماته، محمد حسن بريغش، ط٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٤١٩هـ / ١٩٨٩م، ص٧ .
(٣) السابق، ص٥٠ .
(٤) السابق، ص٥١ .
(٥) السابق، ص٥٢-٦١ .
(٦) السابق، ص٥٠ .
(٧) السابق، ص٩١ .
(٨) السابق، ص١٢٦ .
(٩) السابق، ص١٥٧ .
(١٠) السابق، ص٢٢٩ .
(١١) السابق، ص٢٣٨ .
(١٢) السابق، ص٢٤٠ .